



توظيف الأسطورة في الشعر العربي المعاصر:
من شعرية الأسطورة إلى شعرية اللفظ

The Employment of Myth in Contemporary Arabic
Poetry: From the Poetics of Myth to the Poetics of Word
كريدات حورية

جامعة أحمد زبانه غليزان، (الجزائر) houria.koridet@univ-relizane.dz

ملخص:

تسعى ورقتنا البحثية في البحث عن جمالية الأدب وبالأخص الشعر العربي المعاصر من حيث الكشف على الرؤية الواضحة التي تصوّر العالم في هيئته المستمدة من الواقع والمادة، وذلك عن طريق استخدام الأسطورة وتضمين الفعل الأسطوري من خلال ما ينطلق منه الشاعر وهو اللغة متمرداً عليها، ليصنع لغة خاصة به وأسلوباً يميّزه عن غيره من الشعراء. وكيف أصبح الشاعر العربي يغذي رؤيته الفنية بالأسطورة، ومقابلتها مع معاناته وآماله وطموحاته. معتمداً على العلاقة التي تربط الشعر بالأسطورة.

كلمات مفتاحية: الأسطورة، الشعرية، الفعل الأسطوري، اللغة، النص الحدائي، وظيفة الأسطورة

Summary:

Our research paper aims to explore the aesthetics of literature, particularly contemporary Arabic poetry, by uncovering the clear vision that depicts the world in its reality and material form. This is achieved through the use of myth and the incorporation of mythical action, as the poet rebels against language to create a unique language and style that distinguishes him from other poets. We examine how the Arab poet nourishes his artistic vision with myth, juxtaposing it with his struggles, hopes, and ambitions, relying on the relationship that connects poetry with myth.

المؤلف المرسل: كريدات حورية، الإيميل: houria.koridet@univ-relizane.dz

1. مقدمة :

إن التجربة الشعرية أو بمسمى آخر - تجربة الكتابة الجيدة - مرتبطة بطرائق الكتابة الجديدة والمتجددة، ولعلّ تجربة توظيف الأسطورة واستحضارها في الشعر العربي المعاصر هي تجربة مهمة بل مغامرة خطيرة، ومسؤوليتها تقع على عاتق الشاعر الذي يسعى دوماً للتجديد والبحث عن وسائل مغايرة تماماً لتحريك الإبداع من نقطة المؤلف إلى غير المؤلف، وطبعاً سلاحه الكلمة.

ففي اللغة الشعرية " تدرك الكلمة ككلمة وليست فقط مجرد بديل للمادة المسماة، ولا مجرد تفجير شعور"¹، وليس ترتيب الكلمات هو المقصود هنا الذي يحدد شاعرية النص، إنّما ذلك الذي يدهشنا حينما يصدمننا، والصدمة هنا دوماً متعلقة بالتجاوز، تجاوز المحدود والمألوف معاً، وفي الوقت نفسه يقنعنا بأنه عمل كامل مليء بالأخطاء الجمالية، فالفعل المسعى أدبياً هو ذلك الذي يتميز بالغربة أمام اللغة التي هي حاملة المعنى، ومن هنا "فالأدب اليوم هو الفعل الذي يستوعب كيفية اشتغال اللسان ويشير إلى ما سيكون له القدرة على تغييره مستقبلاً"² هذا المستقبل الذي يبحث عنه الشاعر المعاصر بشتى الطرق ومتخذاً من التجديد حجته، واللجوء إلى عالم مغاير تماماً عن الواقع والمألوف هدفه المنشود لإثراء شعره وجعله أكثر حيوية.

1- علاقة الشعر بالأسطورة:

لقد لجأ الشاعر العربي المعاصر إلى توظيف الأسطورة في أعماله الأدبية ولم تقتصر على أنّها وسيلة للتعبير أو التجديد من أجل التجديد فحسب، بل أصبحت تتوازى مع فكره، فاستخدام الشعراء المعاصرين منهج الأسطورة القديمة من أجل صنع أساطير عصرهم كان نتيجة " استعدادهم الإنساني الدائم للاستجابة للأشياء الجديدة كما كانت في صورتها القديمة"³.

فلكل شاعر عالم خاص وخطاب خاص وطرح خاص يتوجه به إلى جمهوره من القراء، والذي يتميّ أن يكون هؤلاء القراء من الخواص أيضاً، ودوماً يكون للشاعر قلقاً من حاضره الذي يواجهه، فهو بهذا يكون دوماً في سعي مستمر ليتجاوز هذا الحاضر.

فمثلما كانت الأسطورة هي ملاذ الإنسان الأول في الماضي، فالتجديد والتجاوز هما ملاذ الشاعر المعاصر الذي يحاول بطريقة ما أن ينتصر على واقعه وحاضره في شعره، ويصنع من خيبته وجها جديدا وخلافا في شعره المتجدد، فيأتي نجاح الشاعر أو فشله "تبعاً لقدرته على استخدام الصورة الأسطورية في مكانها الصحيح وبالطريقة الصحيحة كذلك، وهنا تشتغل الصورة الأسطورية عند الشعراء في مضمون يخضع الأسلوب إلى التعبير الدقيق" ⁴.

فمن هنا لا يمكننا أن نحكم على أي شاعر معاصر يتعامل مع الأسطورة بأنه شاعر استثنائي، فيما أن الأسطورة أصبحت تشكل نظاما خاصا في بنية القصيدة المعاصرة والتي تتميز بضمانيّة الرؤية، فعلى الشاعر أن يحدث توازنا بينه وبين الأسطورة وبين ما يقوله في القصيدة، وليس هذا فحسب بل لا بدّ أن يقتزن توظيف الأسطورة بفكرة يتبناها الشاعر، أو فكر يحاول الشاعر أن يطرحه باللجوء إلى الأسطورة.

و على الرغم من " أن الأسطورة تعطينا ذلك الإحساس بالوحدة، بين المنظور والغيب، بين الحي والجامد، وبين الإنسان وبقيّة مظاهر الحياة، والنظام الذي تخلقه الأسطورة فيما بينها" ⁵، فمن هذا المنطلق جاءت التجربة الأسطورية لدى الشاعر المعاصر حيث يبقى دوما بروز قطبين متصارعين في النص الشعري المعاصر وهو صراع "الذات و العالم أو الواقع، فالنص الحدائي إذن لا يبدأ في العزلة أو الفراغ، بل نطاق من العلاقات، فهنا الشاعر وهناك الواقع أو العالم بتعارض مفرداته وتعقد علاقاته" ⁶، فكما رفضت الأسطورة نظام العقل المتعالي الذي يجعل نفسه خارج العالم، ثم يفسره عن بعد وكأنه شيء غريب عنه ⁷ يرفض الشاعر دوما تفسير الواقع أو وصفه، وهنا نرى أن الشاعر يأخذ شيئا من الأسطورة وهو رفضها للعقل، ويأخذ أيضا توحيدها الدائم بين الحي والدائم لكنه يختلف عنها في انفصال ذاته من العالم الذي يحيط به، وهذا الاتفاق والاختلاف هو الذي حرّك عنده حالة الإبداع بالأسطورة.

إن الذي جعل الأدب يتطلّع "إلى الاقتران بالأسطورة هو وقوف اللغة عند حدّ معين في نقل أسرار الكون الذي نعيش فيه والتي تتمثل لنا في أحسن الأحوال على شكل صورة أقرب إلى الإحساس الداخلي من أي تعبير لغوي" ⁸.

من هنا تمثلت حاجة الشعراء المعاصرين في توظيف الأسطورة واللجوء إليها كحضور مستمر في القصيدة، وهناك الكثير من النقاد ممن ذكروا وأرجؤوا هذا التوظيف إلى التأثير الذي سيطرت عليه القصيدة - الأرض اليباب- للشاعر الأمريكي "ت.س. إليوت" T.S.ELIOT حيث بدأت حركة الشعر الجديد تتغير وتتسع زوايا الرؤيا فيه، ولقد سيطرت عليه وبشدة الأسطورة وحضورها الدائم فيه وتأثيرها الفعال في القصيدة المعاصرة. وقد تمثل ذلك في شعر بدر شاكر السياب

أهذا أدونيس، أهذا الخواء؟

وهذا السحوب، وهذا الجفاف؟

أهذا أدونيس؟ أين الضياء؟

وأين القطاف؟⁹

فالتجربة الشعورية بما لها من خصوصية في كل عمل شعري هي التي تستدعي الرمز القديم، كما يفعل "السياب" وجد فيه التفريغ الكلي لما تحمله من عاطفة أو فكرة شعورية، وذلك عندما يكون الرمز المستخدم قديما، وهي التي تضيف على اللفظة طابعا رمزيا بأن تركز فيها شحنتها العاطفية أو الفكرية الشعورية ولكي يكون الرمز المستخدم جديدا¹⁰ في الأسطورة سرّ الخلاص حيث تتوق شخصياتها إلى الخلاص من قيد البشرية إلى السمو لعالم الألوهة، وهذا الخلاص يتمثل في الشيء الخارق غير الممكن، البطولة الخارقة، المثالية، فهذا شبه بينها وبين الشعر حيث يتوق الشاعر إلى الخلاص من خيبة الواقع المعيش، الهزائم اليومية والفجعة المستمرة التي لا خلاص منه إلا في الثورة والتمرد في الشعر، فتلتقي "الأسطورة بالأدب في تجربة الأديب التي تشبه الأسطورة بكونها لا تحتوي على صور مبعثرة أو كلمات متفرقة لكنها رؤية لتصوير عميق يجاهد من أجل البحث عن تعبير خاص"¹¹.

فإذا استعان الشاعر بعناصر الأسطورة التي فيها الخلق والتجديد والانتصار ذلك أنه يبحث عن خلاص وطمأنينة قد سلبتها منه الأنظمة والحضارة والحياة المتعثرة وشغفه الدائم في البحث عن عالم ينشأ في حرية.

عشتار على ساق الشجرة

صلبوا دقوا المسمار

في بيت الميلاذ، الرحم

تموز تجسد مسماراً

من حفصة يخرج والشجرة¹²

فمسألة توظيف الأسطورة أو خلقها أو توليدها على حدّ سواء قد يتأخر عند أحد الشعراء في استنطاق الأسطورة منذ أول بروز لها في الشعر العربي المعاصر لكن تأخره قد يكون استثنائياً في استنطاقه للأساطير، وتمثلها يأتي كما حدّده "عبد الواسع الحميري" في كتابه "الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية"، أنها: تجربة اندماج كلي في العالم، لا تجربة وصف لعالم، تجربة فعل في العالم، لا تجربة انفعال بعالم، تجربة تفجير وتغيير للعالم، لا تجربة محاكاة أو تعبير عن العالم، تجربة كشف عن وجود، لا تجربة وصف لموجود، تجربة تجاوز وسيرورة لا تجربة جمود واستقرار، تجربة خلق باللغة لا تجربة تعبير باللغة¹³. فمثلما للأسطورة فكر ومعتقد وتعتبر فناً وتاريخاً، أيضاً الشعر من خلال هذه التجربة الشعرية المتمثلة في الاندماج شبيه بها له فكر وفيه فن ويكون تاريخاً لمرحلة معينة.

إنّ الشعر هو خلق لغة جديدة وذلك باستخدام الكلمة، والأسطورة هي واقع غير مألوف تفسيري وصل إلينا وذلك أيضاً باستخدام الكلمة، وقد كان ظهور الكلمة في حياة الإنسان "معجزة أخرى، لقد كانت الكلمة عند ذاك هي المقابل لكل الوجود، بل ربما ظنّ الإنسان الأوّل أنها تشتمل على كل الوجود وقد استطاع أن يميز لأوّل مرة بين نفسه وغيره من الحيوان عن طريق اقتداره على الكلام وامتلاكه الكلمات"¹⁴.

فالتداخل بين الشعر والأسطورة يبدأ أو ينطلق من الكلمة، فمثلما تكون الكلمة دوماً معبرة أوّل مرة في الشعر ثم مشيرة إلى معانٍ مختلفة فيما بعد فالكلمة "لا تكون مجرد شيء أو معنى مستقلين بذاتهما، الكلمة تكون دوماً لها معنى عميقاً ذات أفق، ولا تكون سطحية وهكذا هي الأسطورة"¹⁵.

فعلى الرغم من كلامية الأسطورة تكون كلاميتها دوماً محتجبة معبّرة، ودائماً يمكن رؤية وجود طبقتين أو أكثر¹⁶ في احتجابها خلف الكلمة كما في الشعر المعاصر الذي أصبحت أدواته ولا سيما الأداة الأسطورية ضبابية التناول الذي كلّما تمددت ضبابيته أصبح غير محدود الدلالة.

فالأسطورة كما في الشعر بالدرجة نفسها ثقافية، أي أنها ليست مجرد تعبير بل وتعبير حيوي مُلهم، فلكل صيغة شعرية دائما شيء يشير إلى شيء ما، وهي دائما حياة مرئية من الدّاخل، الشعر يقدم ذلك الدّاخل الذي يكون بطريقة ما حيّا، الذي يملك روحا حيّة ويتنفس وعيا وعقلا وثقافة¹⁷.

2- وظيفة الأسطورة في الشعر:

يقول إليوت: T.S.ELIOT "الطريق الوحيد للتعبير عن الشعور في شكل فني هو إيجاد معادل موضوعي له، أو بعبارة أخرى إيجاد مجموعة أشياء، أو وضع أو سلسلة أحداث تؤلّف مكونات ذلك الشعور المحدد بحيث عندما تقدم تلك الحقائق الخارجية التي يجب أن تنتهي بتجربة حسّية، فإن الشعور يستثار في الحال"¹⁸، لكي يجد الشاعر المعاصر متنفسا جديدا له من ضيق دائرة التعبير القديم والمألوف وكذلك انتماء جمالي على مستوى الشعر أو فكري على مستوى الإيديولوجيا عليه دوما أن يبحث عن معادل موضوعي لما يكتب أو بما سيكتب، ومع بحثه غير المستقر وجد في الأسطورة معادلا لما يريد، ونجاة لما يعاني، فكانت الأسطورة أدواته ورمزه وموضوعه غير المستقر.

فمنذ أن كانت اللّغة هي "أول أشكال الترميز الموضوعي التي ابتكرها الإنسان واكتشف معها قدرته على استيعاب ما حوله من خلال تكوين المفاهيم، ثم موضعها في الخارج عن طريق الكلمات، والاستناد إلى هذه الكلمات بعد ذلك من أجل خلق مستوى من المفاهيم وهكذا هو في سلسلة متصاعدة رافقت ارتقاءه وتقدّمه، ومن ثمّ كانت الأفكار هي أول تعبير عن نشاط الترميز الذي يرافق اتساع الوعي وارتقائه"¹⁹.

و مع هذا تصوّر البسيط لموضوع الترميز اللّغوي في الارتقاء والتقدم تأتي مهمة الشعر في ترقية رؤياه المنشودة في الخلق والتجديد، وكما ذكر إليوت T.S.Eliot من ضرورة إيجاد المعادل الموضوعي تأتي مهمة الأسطورة أو الرمز الأسطوري الذي يحوّل واقع القصيدة من حالة الثبات والاستقرار إلى حالة الانطلاق والحرية، ومن هذه النقطة بالتحديد وهي الحرية، نركّز على أنّ الإنسان مثلما تحرّر من قيد الصمت متجها نحو الكلام وذلك من أجل الرّقي والتقدّم، فالشاعر أيضا قد تحرّر من قيد التقليد والثبات لكن برقي شعري، وليس من أجل توظيف لأسطورة ما قد انتشر توظيفها لدى شعراء العصر.

تتمثل صلة الأدب بالأسطورة في توظيف عناصر الأسطورة في إبداعاتهم الأدبية وفق قناعاتهم ومتطلبات مجتمعاتهم، ولهذا ترجع صلة الأدب بالأسطورة لاشتراكهما بالكلمة بحيث

ينشأ عن ارتباطها علاقات نشوئية وجدلية²⁰. وهذا النشوء يتم بتوظيف الأسطورة في خلق لغة جديدة يسعى فيها الشاعر إلى خلق أسطوره الخاصة التي يتحوّل فيها هو نفسه من شاعر إلى شاعر أسطوري وذلك حسب قدرته على استيعاب أسطوره، لهذا نجد أنّ الشعر يلجأ "للأسطورة الوفيّة لتفتح له مجرى حركة استمرارية النص الشعري الذي يرسم صورته ويستحضر أسطوره كما يجب"²¹.

فالوعي الأسطوري لدى الشاعر المعاصر هو وحده الذي يقدّم له وعيا ذاتيا في توجيه الأفق الشعري الذي لا يعترف بأي قيد شأنه شأن الأسطورة التي تلغي التحديد الزماني والمكاني لها، فالصورة دوما سواء في الشعر أو الأسطورة "هي ذلك الشيء الذي يقدّم تشابكا عقليا وشعوريا في لحظة من الزمن"²².

فللأسطورة دور في انعطاف القصيدة المعاصرة عن الشكل الشعري القديم التقليدي، وأصبحت وبكلّ شساعة غير محدودة لمحتوى أساسي في تشكيل النص الشعري، "فاستخدام الأسطورة وفق التيارات الفكرية عند الشعراء العرب الحديثين بادرة حادثة وردّة فعل على مرض العصر وما أصاب الأدب من انهزامية"²³، ولم تكن الخيبة مقتصرة على الذات العربية وحدها فلقد أدرك إليوت "بذكاء العلاقة بين الأسطورة والشعر في العالم المعاصر المتدهور... لأنه عاش في عالم تحطّمت فيه إنسانية الإنسان، وتقطّعت فيه أوصال القرابة البشرية، نلمس صقيع هذا الواقع وجد به غير الشعري، فلجأ إلى حضان الأسطورة الدافئ ومنبعها الثري"²⁴، فالخيبة والانهزامية والقلق من الحاضر أمر مشترك بين الانسان المعاصر إجمالا ولا يقتصر على الإنسان العربي فقط.

إن توظيف الأسطورة في النص الشعري العربي المعاصر هو مسألة جدل بين الشاعر والعالم الذي يعيشه " فعندما يدخل الشاعر الحداثي في تجربة مباشرة مع إمكانات الوجود، أو التحوّل الشعري فذلك يعني أنه قد صار في جدل مع العالم في كليّته وأنّه من ثم قد أخذ يتحوّل في العالم بمقدار ما يغيّر في نظامه ونظام العلاقة بين أشيائه"²⁵، هذه العلاقة التي تشكل له نظاما خاصا في بنية الخطاب الشعري العربي المعاصر، ومن هنا ومن خلال هذا النظام الخاص والجديد المتمثل في التعبير الأسطوري تكون وظيفة الأسطورة هي "الكشف عمّا هو نموذجي لكل الطّقوس والكشف يعطي صورة طبيعية للذي ارتبط بحديث اللّغة الرمزية المصوّرة للأسطورة، وتبقى اللّغة الرمزية للأسطورة غير قابلة للانتقال

والمقاطعة دون إلغاء إحداها للأخرى، فيوظف الشاعر ما يريد في حالة تجاوب وتبادل دون إنقراض في الحركة والتفاعل بين الطرفين³¹ عكس السياب الذي يختار أسطوره على أساس الحلم، وقد "سخر رموزه فكريا في نطاق شعري وسّع من حدود حريته في استخدام الأسطورة، وقد اتكأ على المنطق الشعري وحده لا المنطق العقلي"³².

إذا كانت الحاجة إلى تغيير الواقع الحاضر بالعودة إلى الماضي شديدة جدًا عند الشاعر المعاصر، فهذه الحاجة لا تعني توظيفاً مباشراً أو غير مباشر للأسطورة فقط كبديل وتعبير عن حالة حضارية وقلق نفسي فقط، بل لأن الشاعر المعاصر وجد في الأسطورة فعل الزمن المستمر، فالحدث الأسطوري هو رسالة زمنية وغير مرتبطة بفترة ما، إنها رسالة سرمدية خالدة تنطلق من وراء تقلبات الزمن الإنساني، وأحداث هذه الأسطورة هي ليست ماضية، بل هي مستمرة وماثلة للأبد "فعدم تداخل الزمن الأسطوري بالزمن الحالي يجعل من الأسطوري حدثاً ماثلاً أبداً، فالأسطورة لا تقصّ عمّا جرى في الماضي وانتهى، بلعن أمر ماثل أبداً لا يتحول إلى ماضي"³³.

فالطاقة الإبداعية التي أكسبت الشعر المعاصر خلقاً شعرياً فريداً من الدلالات والوظائف والرموز، قد فعلتها استمرارية الزمن الأسطوري، الذي يشكّل نوعاً من الحرية عند الشاعر المعاصر، التي تشكّل الدافع الوحيد للإبداع "فالحرية التي هي أساس الوجود الإنساني، بل ماهية الوجود الإنساني، لا تظهر في التجربة إلا من خلال نقيضها وهو الضرورة، والنقيضان الحرية والضرورة هما قمة النقائض التي يتألف منها وجود الشاعر الحدائي وعالم وجود الشعري"³⁴.

3- الرمز الأسطوري:

تنوع ذكر الأساطير في الشعر العربي المعاصر وقد تركز في أشكال متعددة وكانت هي أدواته التي يناضل بها على الدوام من أجل فهم تجربته "فالأسطورة صورة عريضة ضابطة تضي على الوقائع العادية في الحياة معنى فلسفياً، أي أنها تتضمن قيمة تنظيمية بالنسبة للتجربة، وبدون تلك الصور التي تقدّمها الأسطورة تظل التجربة سديمية ممزّقة، أي مجرد تجربة ظاهرية وسديمية التجربة هي التي تدفع إلى خلق هذه الصور بقصد أن تعمل هذه الصور بدورها على تنقية التجربة وتوضيحها"³⁵.

ويظل الاستخدام الأسطوري غير مباشر، وغير واضح الدلالة، وهذه هي الخاصية الأهم في تعامل الشاعر مع الأسطورة، لأنّ الرمز دوماً هو الذي يسيطر على لغته الشعرية، فاستخدام اللغة "في الشعر استخداماً رمزياً، فلا تكون هناك كلمة أصلح من غيرها لكي تكون رمزاً، إذ المعوّل في ذلك على استكشاف الشاعر للعلاقات الحية التي تربط الشيء بغيره من الأشياء. من هنا تبرز أمام الشاعر إمكانية عظيمة الدلالة هي أنّه من حقّه أن يستخدم موضوعاً أو حادثة استخداماً رمزياً وإن لم تكن قد استخدمت من قبل هذا الاستخدام"³⁶، وهذا الشأن نفسه ينطبق على الاستخدام الأسطوري، فقد تكون الأسطورة واحدة وحدثها واحد في زمنها الأسطوري، لكن في زمنها الشعري تختلف من شاعر لآخر حسب الحاجة والتجربة، وحسب توظيفها في السياق الذي يرد فيه من أي نوع من أنواع الصورة، فالقوة في الاستخدام الخاص للرمز لا يعتمد على الرمز نفسه بمقدار ما تعتمد على السياق³⁷.

فالرمز الأسطوري "تموز"³⁸ الذي يشير إلى الخصب والإنبات، لا تتوقف دلالاته في الخصب والإنبات في القصة الأسطورية، حيث يتجاوز أي شاعر معاصر هذا المدلول إلى "حدود المفاعلة بين تموز كثافة إنسانية والثورة كثافة معرفية، لا يعني فصل الشاعر بين فكرة الثورة وفكرة تموز فكلاهما توظيف لما خزنته ذاكرة الشاعر من ميراث شامل يفتح العطاء الإنساني بفكرة تكبر عن مجرد لصق الثورة بتموز فنياً من منطلق المعرفة العامة أن تموز ثاروا غيروا بدلوا أخصب"³⁹.

لقد استطاع الشعراء المعاصرين أن يستخدموا أسطورة تموز كرمز أسطوري في جوّ من الثورة والتحوّل، ثورة ضد العالم بالتجدد والتحوّل هو بؤرة الشعر المعاصر إذ مثّلت تجربة التحوّل "فعل ولوج الذات التجربة، أو حالة انفصام الذات عن الواقع كخطوة أولى تمهد للدخول إلى ذات أخرى هي حالة الاندماج في العالم"⁴⁰.

فتجربة الاندماج الكلّي في عالم الأسطورة يحتاج إلى أن تكون الصورة في الأسطورة الحيّة، لتطرح في الشعر "في هيئات حيّة وفي وجوه حيّة"⁴¹، بحيث يكون الرمز هو باعث للحياة في الشعر المعاصر، وباعث للحركة والتجدد، وهذه هي بؤرة الشاعر الحدائي، "الذي غدا موجوداً لا وجود له إلا في التجربة، وغدا وجوده في التجربة، من ثم نوعاً من الحوار، والحوار الأعظم بين ذاته وذات الآخر أو بين أناه الشخصية وأناه الأخرى المعمّمة أو الاجتماعية"⁴².

فلن نقول إن الرمز الأسطوري جاء كاستعارة من الأسطورة نفسها، إنما جاء كبديل عن واقع جاف يمرّ به الشاعر المعاصر، ليكون تجربة شعرية يستمر فيها التحول المفاجئ في نظام الشعر، والذي يتحرك بين الحلم والحرية.

يمكننا التمييز بين الواضح وغير الواضح، فكل وضوح محدّد الصورة له بداية ونهاية، أمّا غير الواضح يأتي غير محدّد الصورة أو غير مكتمل الملامح، لا تظهر لنا عناصره جليّة منذ أول وهلة لنا إذا تعاملنا معه، وتبقى طبقاته مخفية عنّا مثل الحلم الذي يكون مرتبطك الصورة بحيث لا يمكننا فهمه أحياناً ويحتاج دوماً إلى تفسير وتأويل لنفهم إلام كان يشير، وإن صحّ التعبير الحدث في الحلم الذي جاء مخلخلاً لا يلتزم ببداية أو نهاية.

هذه الخلخلة واللامنتهي التي تؤسس للحلم، إنّها أساس الفعل الشعري وجوهر العملية الإبداعية في الشعر المعاصر "مسألة الإبداع الشعري ليست جوهرية مسألة ذاتية أو موضوعية، وإنّما هي مسألة رؤيا وكشف، إذ ليس في الإبداع الشعري انفصال بين الذات والموضوع على غرار ما نراه في الفلسفة والعلم، وإنّما هناك وحدة بدئية بينهما" ⁴³.

يقول أدونيس: "كن حلماً إذا أردت أن تكون الأبد: فالحلم هو وحده الأبدى أمّا المنطق فعدم وخلاء، الحلم هو ذلك الزمن الآخر الذي يختلف عن الزمن الذي يجري ويمضي وينتهي، يختلف عن المدّ الزمني" ⁴⁴، فالرؤية البصرية والعيانية لا تحقق الأمل المنشود الذي يسعى إليه الشاعر، فحالة الظهور التي تتميز بها الرؤية الخاضعة للمنطق وقيود العقل لم يقتنع بها الشاعر المعاصر، ولم ير فيها أنّها قدّمت لحاجته سدّاً أو إضافة، أمّا الرؤيا فهي تعيد "صياغة العالم على نحو جديد، وهذه الرؤيا هي جوهر الشعر الذي يميّزه عن أي مراحل تجديدية أخرى" ⁴⁵.

فالشعر بصفة عامة خضع لمراحل تجديدية متنوعة، لكن ليس كلّ تجديد يلغي قديماً، بل كان يقفز منه بغية الوصول إلى الحقيقة التي يبحث عنها سواء الحقيقة الشعرية أو الحقيقة المعرفية. فحقيقة الشعر العربي القديم تمثلت في اللفظ وجودته وحسن الصفات، وتمثلت في تأليف الصورة وفق مقياس محدد، وقالب معين، وتغيرت هذه الحقيقة بدءاً من الشعر الحرّ الذي أسقط جميع مقاييس الشعر القديم من وزن وقافية وحسن اللفظ يبدأ في أوّل شطر وينتهي عند آخره، فالحقيقة الآن "هي ما لا يقال، هي المكبوت، المقموع، وهذا يحتاج إلى لغة تفصح عنه، وقبل ذلك إلى شجاعة الإفصاح ولابدّ

من أن تكون هذه اللغة جامحة لا تروّض⁴⁶، فعملية خلق لغة متمردة لن تنشأ إلا في الرؤيا فبمجرد أن يشعر الشاعر أنه حرّ سيتكلم لغة حرّة، وينجز إبداعا حرّا وسيصنع لتجربته الشعرية شكلاً جديداً لا تلغي القديم إنّما تضيف للشعر شيئاً جديداً.

إن التطوّر الحديث في رأي أدونيس بلبل علاقة اللّغة بالعالم، فهو يفصل بينهما شيئاً فشيئاً "مثلا الكلمات التي نتداولها ضائعة فهي الماضي الذي تجاوزه تفكيرنا لكتّاه في الوقت نفسه هي الماضي الذي لازال مستمرا، وهي إذاً لا تعبر عن واقعنا وحاضرنا، ولا عن مستقبلنا وإنما تعبر عن وهم استمرارنا في الوجود، وهذا الفرق في اللّغة والواقع أخذ في التزايد يوما فيوماً وحين لا يعود للكلمات معنى تصبح أية كلمة صالحة لأي شيء أو لأي معنى، هكذا نتكلم لكي تقتل الكلمات أو لكي لا تقول شيئاً، أو نتكلم لغة لا تقول إلا ما يناقضها، الطاغية يتحدث عن الحرية، والمنافق عن الصدق والكاذب عن الحقيقة"⁴⁷.

هذا الحديث الذي يعني به أدونيس عجز اللّغة عن التعبير يوحي إلى ضرورة إيجاد مكان فسيح للتحرك بحرية في الأفكار والكلام "فالكلام هو أن ننطق بالعالم، كل ما يرثه، وما يخبئه وما يتقمصه وما يوحي به، وأن ننطقه لحظة نشاء في أي شكل نشاء تلك هي الثورة الحقيقية.. منذ أبي العلاء المعري لم نتكلم، ردّدنا، كرّرنا، حفظنا، لكننا لم نتكلم"⁴⁸.

لقد لازم هاجس تجديد اللّغة وأدوات التعبير معظم شعراء العصر الحديث، والمسألة لم تكن تأملات وخرق قوانين شعرية قديمة فقط، وإنما أصبح تحقيق التجربة الشعرية هو هدف وغاية كل شاعر بإخضاعه تجربته إلى فكرة ما أو أيديولوجيا ما، وهذه التجربة لا يقودها العقل أو المنطق إلى حد ما، إنما تقودها أساليب رؤيا جديدة يؤمن بها الشاعر.

وأول ما يكسر المعقول والعقل والمنطق هو الحرية التي لم يجدها الشاعر إلا في الحلم، الذي يرتفع أو يتواجد خلف كل منطق، ولا تتحقق حالة تجاوز كل متناقض إلا في الحلم و"لم تعد القصيدة الحديثة تقدّم للقارئ أفكارا ومعاني شأن القصيدة القديمة، وإنما أصبحت تقدم للقارئ أفكارا ومعاني شأن القصيدة القديمة، وإنما أصبحت تقدم له حالة أو فضاء من الأخيلة والصور ومن الانفعالات وتداعياتها، ولم يعد ينطلق من موقف عقلي أو فكري واضح وجاهز وإنما أخذ ينطلق من مناخ انفعالي نسمّيه تجربة أو رؤيا"⁴⁹

فاللّغة وما اكتسبته من قداسة حول دلالاتها ومعانيها ووظائفها، والشعر أيضا و ما اكتسبه من قوانين شعرية مضبوطة جعلنا من الشاعر المعاصر أن يثور على هذا الجمود و

السكون، فمن هنا، لا بدّ من ابتكار لغة بديلة تعبّر عن واقع ممكن أن يكون، وعليه أن يبعث اللّغة والواقع من جديد، وإن كان أدونيس يرى العجز ليس اللغة نفسها، وإنّما هو "العجز عن التعبير، عن الإحاطة بالعالم وأسراره، والذي يُنسب عادة إلى اللّغة لا يكمن في اللّغة بحدّ ذاتها، وإنّما يكمن في غياب الإنسان الذي يعرف كيف يفرغ اللّغة من ليلها العتيق ويردّها إلى براءتها الأولى، هنا يكمن سرّ الإبداع الشعري وفي هذا المستوى وحده يصحّ القول إن الشعر أولاً لغة" ⁵⁰.

و على هذا فإنّ تجاوز الشاعر حدود العقل والمنطق في اللّغة والواقع إلى رؤياه المنشودة والنيّة المرغوب فيها يشبه الإنسان الذي يحاول دوما الهروب من واقعه اليومي المليء بالمسؤوليات والانهمامات إلى طفولته البعيدة التي كان يؤطرها أو يقودها الحلم والخيال، فالعودة إلى الطفولة "إنّما هي رمز للتحرر من كل منطق و نظام، وأن المبدأ الذي تقوم عليه هذه العودة ليس التماسا للعلاقة اللازمة بين الفن والطفولة والتي لا مفرّ منها لكل فنان صادق بقدر ما هو هروب وانسحاب إلى المنطقة الحرام التي تنأى فيها النّفس عن أي مؤثر خارجي" ⁵¹.

فالحلم بالنسبة للشاعر المعاصر هو الوحيد الذي بإمكانه أن ينقل الشعر من مفهوم الرؤية الواضحة البصرية التي تدل على الصورة البيانية إلى مفهوم الرؤى الذي ينقل الأفكار المبعثرة إلى حيّز النظرية في الرؤيا الشعرية "فالقصيدة مثلاً لا تتشبّه بالواقع سواء أكان ظلاماً أم نوراً، أي أنّها لا ترتبط به آلياً، وإنّما تأخذه ككل وتنفذ في معانيه ودلالاته وأبعاده، حيث يتشابك السقوط والنهوض والعتمة والبريق، الجمود والخلخلة في حركة دائمة من التحوّل الدائم باتجاه المزيد من سيطرة الإنسان على مصيره في الكون" ⁵².

فالواقع الشعري من خلال الحلم أو الاصطدام بالأسئلة المتكررة في ذهن الشاعر تجعله ينفذ إلى واقع التأمل، فتري لغته تتخفّى بين رموز أسطورية أو حتى رموز صوفية، ولن تكون لغته مهمة أبداً "فكما أنّ اللّغة أساس في التعبير الكيميائي أو الرياضي أو الفيزيائي فإنّها أيضاً أساس في التعبير عن الحلم، فكل شيء لغة و من دون لغة لا يوجد علم، سواء كان علم المادّيات أو علم الروحانيات" ⁵³، وباعتبار أن الحلم هو الحقيقة بالنسبة للشاعر المعاصر "هو اللغة المعتمدة وليس الواقع" ⁵⁴، وهو أيضاً خلق أسئلة جديدة لا إجابة عن أسئلة جاهزة.

خاتمة:

إنّ الشاعر كغيره من شعراء عصره لجأ إلى توظيف الأسطورة كحضور مستمر في القصيدة ولم يقتصر توظيفها على أنّها وسيلة للتعبير والتجديد من أجل التجديد فحسب، إنّما وجد الشاعر في استمرارية الزمن الأسطوري نوعاً من الحرية والتي تعتبر هذه الأخيرة هي أساس الإبداع في الشعر الجديد..، فخلاصة ما وصل إليه البحث في تتبع مسار الأسطورة في الشعر العربي

-الرمز الأسطوري لم يأت كاستعارة من الأسطورة نفسها إنّما جاء كبديل عن واقع جاف يمرّ به الشاعر، وهذا البديل هو تجربة شعرية يستمرّ فيها التحوّل المفاجئ الذي يتحرّك بين الحلم والحرية في قانون الشعر الجديد.

-القدرة على الابتكار هي القانون الجديد للإبداع في الشعر الجديد.
-الأسطورة تفتح أفاقاً جديدة للتجربة الإبداعية من خلال الكشف والمغامرة في المجهول.

-الوعي الأسطوري لدى الشاعر المعاصر هو وحده الذي يقدّم له وعياً ذاتياً في توجيه الأفق الشعري الذي لا يعترف بأيّ قيد شأنه شأن الأسطورة التي تلغي التحديد الزمني والمكاني وكذلك تتجاوز حدود العقل.

-اقتتران الشعر بالأسطورة هو وقوف اللّغة عند حدّ معين في نقل أسرار الكون، والأسطورة بالنسبة للشاعر المعاصر هي أقرب من أيّ تعبير لغوي فكانت الحاجة إليها هي البحث عن الخلاص من طغيان الواقع وقوانينه على الإنسان حيث شكّلت الأسطورة ملاذ الشاعر المعاصر الذي يحاول بطريقة ما أن ينتصر على واقعه وحاضره في شعره. ومن الواضح أنّ الممارسة أو التجربة الشعرية هي لا تتوقف عند حدّ معين من التجديد، فكلّ جديد اليوم يصبح في المستقبل نقطة لا بدّ من تجاوزها لبحث في جديد آخر وهذا التجديد لن يلغي قديماً تماماً إنّما يكون إضافة تدخل في جدول ثراء الشعر العربي أو الشعر بصفة عامة.

وببقى سرّ الشعر لم يُكتشف بعد، ولم يقف عند شاعر معين أو عند رؤية محدّدة، بل يفتح أفاقاً جديدة عند كلّ شاعر ينتقل عبره من سؤال إلى سؤال آخر، ويتنقّل عبره من سفر إلى سفر آخر بحثاً عن سرّ جمالية الشعر، وهذه الرحلة التساؤلية هي التي تُغني

الشعر وتثريه، ويبقى الشعر كنز الشعراء المفقود ومنجمهم الخفي المليء بالأسئلة، ولعلّ السؤال المنشود في الشعر هو كيف يكون الشعر شعرا؟
أعتقد أنّه إذا وصل أحدهم للإجابة عن هذا السؤال سيفقد الشعر قيمته وينتهي عند حدوده، لكن عمق الشعر وحدوده اللانهائية هي التي تفتح دروبا لتجارب جديدة في إثراء الشعر، وزيادة التساؤل عن ماهية الشعر التي لم يُكتشف سرّها بعد.

مراجع البحث وإحالاته:

- ¹- صموئيل وآخرون، مفهومات في بنية النص، تر: وائل بركات، ط1، 1994، إفريقيا الشرق، ص 37.
- ²- جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، عبد الجليل ناظم، ط2، 1997، دار توبقال للنشر، المغرب، ص7.
- ³- عماد الدين الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا دراسة في النقد العربي الحديث، د ط، دتا، ص 56.
- ⁴- عماد الدين الخطيب، المرجع نفسه، ص 126.
- ⁵- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط2، 1997، منشورات علاء الدين، دمشق ص 21.
- ⁶- عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، ط1، 1999، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص 6.
- ⁷- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، ص 21.
- ⁸- عماد الدين الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا، ص 49.
- ⁹- بدر شاكر السياب، الديوان، دار العودة، بيروت، دط، 2006، ص: 179
- ¹⁰- عز الدين إسماعيل الشعر العربي المعاصر قضاياها ظواهره الفنية والمعنوية، ط 3، 1981، دار العودة ودار الثقافة ص 119
- ¹¹- عماد الدين الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا، ص 47
- ¹²- بدر شاكر السياب، الديوان، ص 437
- ¹³- عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، ص 6-7
- ¹⁴- عز الدين إسماعيل، الشعر العربي المعاصر، ص 223.
- ¹⁵- اليكسي لوسيف، فلسفة الأسطورة، تر: منذر حلوم، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، ص 112.
- ¹⁶- اليكسي لوسيف فلسفة الأسطورة، تر: منذر حلوم، ص 112.
- ¹⁷- اليكسي لوسيف، فلسفة الأسطورة، تر: منذر حلوم، ص 112.

⁴⁵- محمد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بياناتها ومظاهرها، ط1، 1996، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان، ص 64.

⁴⁶- علي أحمد سعيد، أدونيس، زمن الشعر، ص 49.

⁴⁷- علي أحمد سعيد، أدونيس، زمن الشعر، ص 49.

⁴⁶- علي أحمد سعيد، أدونيس، زمن الشعر، ص: 49

⁴⁹- علي أحمد سعيد، أدونيس، زمن الشعر، ص 14.

⁵⁰- علي أحمد سعيد، أدونيس، زمن الشعر، ص 245

⁵¹- مجد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، ط1، 1994، دار الشروق، ص 175.

⁵²- علي أحمد سعيد، أدونيس، زمن الشعر، ص 342.

⁵³- حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999، ص

37

⁵⁴- حنا عبود، المرجع نفسه، ص 37

قائمة المراجع

- أدونيس (أحمد علي سعيد)، زمن الشعر، ط 6، دار الساقى .

- أليكسي لوسيف، فلسفة الأسطورة،، تر : منذر حلوم، ط1، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا.

- بعلي حفناوي، أثر. ت.س، إليوت في الأدب العربي المعاصر، ج2، د ط، د تا، دار الغرب للنشر والتوزيع.

- بدر شاكر السياب، الديوان، دار العودة، بيروت، دط، 2006،

- ت.س. إليوت، الأرض اليباب، الشاعر والقصيدة- تر: عبد الواحد لؤلؤة، ط1، 1980، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت.

- جوليا كريستيفا، علم النص، تر: فريد الزاهي، عبد الجليل ناظم، ط2، 1997، دار توبقال للنشر، المغرب .

- حنا عبود، النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري، منشورات اتحاد الكتاب العرب، 1999.

- صموئيل وآخرون، مفهومات في بنية النص، تر: وائل بركات، ط1، 1994، إفريقيا الشرق.

- عماد الدين الخطيب، الأسطورة معيارا نقديا دراسة في النقد العربي الحديث، د ط، د تا.

- عبد الواسع الحميري، الذات الشاعرة في شعر الحداثة العربية، ط1، 1999، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع .

- عز الدين إسماعيل الشعر العربي المعاصر قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية، ط 3، 1981، دار العودة ودار الثقافة

- فراس السواح، الأسطورة والمعنى، دراسات في الميثولوجيا والديانات المشرقية، ط2، 1997، منشورات علاء الدين، دمشق
- محمد حمود، الحداثة في الشعر العربي المعاصر، بياناتها ومظاهرها، ط1، 1996، الشركة العالمية للكتاب، بيروت، لبنان.
- مجد زكي العشماوي، دراسات في النقد الأدبي المعاصر، ط1، 1994، دار الشروق .